بسم الله الرحمن الرحيم

ديمقراطية السذَّج

تأليف

Gérald Bronner

ترجمة

د. المنجي محمد القردلي

قسم الدراسات الاجتماعية

جامعة الملك سعود

دار جامعة الملك سعود للنشر
KING SAUD UNIVERSITY PRESS

ص.ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ المملكة العربية السعودية

ح دار جامعة الملك سعود للنشر، ١٤٤٠هـ (٢٠١٩م)

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

برونير، جيرالد.

ديمقراطية السذَّج./ جيرالد برونير؛ المنجي محمد القردلي.– الرياض، ١٤٤٠هـ

٢٣١ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٨ – ٧٥٣– ٥٠٧ – ٦٠٣ – ٩٧٨

١ – الاتصال (علم الاجتماع) أ. القردلي، المنجي محمد (مترجم) ب. العنوان

ديوي ١٤ ,٣٠١ ١٤٤٠/٨٩٤٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٨٩٤٧

ردمك: ٨ – ٧٥٣– ٥٠٧ – ٦٠٣ – ٩٧٨

هذه ترجمة عربية محكمة صادرة عن مركز الترجمة بالجامعة لكتاب:

La Démocratie Des Crédules
By: Gérald Bronner
© 2013 By Press Universitaires De France
وقد وافق المجلس العلمي على نشرها في اجتماعه السادس عشر للعام الدراسي ١٤٣٩/ ١٤٤٠هـ المنعقد بتاريخ ١٨/ ٧/ ١٤٤٠هـ الموافق ٢٥/ ٣/ ٢٠١٩م.

جميع حقوق النشر محفوظة. لا يسمح بإعادة نشر أي جزء من الكتاب بأي شكل وبأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو آلية بما في ذلك التصوير والتسجيل أو الإدخال في أي نظام حفظ معلومات أو استعادتها بدون الحصول على موافقة كتابية من دار جامعة الملك سعود للنشر.

دار جامعة الملك سعود للنشر
KING SAUD UNIVERSITY PRESS

مقدمة المؤلف

إمبراطورية الشك

بلغتني في ١٩ من ديسمبر عام ٢٠١١م رسالة إلكترونية من أحد القائمين على موقع "Reopen 11/ 09"، مضمونها الدفاع عن الرأي القائل: "إنّ الرواية الرسميّة لأحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م – الأعمال الدامية التي قامت بها القاعدة – مشكوك في أمرها". وتوجيه صاحبها إليّ هذه الرسالة نابعة من اطلاعه على ما طرحته عبر الصحافة أو الإذاعة أو التلفاز حول تلك القضية، ومحاولتي بيان كيفية عمل آليات الاعتقاد تحت ما يسمّى بـ "أوهام المؤامرة"، وربّما ضربت مثالًا بالذين يعتقدون أنّ هذه الاعتداءات هي من صنع وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA. ويمكن أن يقال الكثير حول هذه الرسالة اللطيفة وما تضمنته، وخاصة السؤال الذي طرحه عليّ، ويبدو بريئًا وسليمًا: "ألا تظنون أنّ فتح تحقيق مستقل يمكن أن يسمح بالتوافق بين المقتنعين بالرواية الرسميّة، وأولئك الذين لديهم شكوك؟". ويلمح هذا السؤال إلى أنّ التقرير الرسمي[1] قد كتبه خبراء مشكوك فيهم، ويعطي انطباعًا ما، مثلما هو الحال عادة عندما نطالب بتقرير "مستقل"، فإنّ محدثي لن يرضى إلّا إذا أدّى هذا التقرير إلى نتائج تتماشى مع أطروحاته. لكن الشيء الذي لفت انتباهي أكثر هو عنوان رسالته: "الحق في الشك"، حيث يشير إلى شعور المرسِل بأن أحد حقوقه الأساسية قد تُعدّي عليها.

ولكن ما يدعو للدهشة هو مطالبة هذا الشخص بحق يتمتع به كاملًا. فهل يا ترى منعه شخص ما من تنشيط هذا الموقع، أو إرسال فيديوهات عبر الإنترنت، أو نشر كتب، أو كتابة مقالات، أو توزيع منشورات في الشارع، أو تنظيم تظاهرات عامة، أو التعبير عن الرأي بصفة عامة؟!

(١) سبتمبر ٢٠١١م: التقرير النهائي للجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية ضدّ الولايات المتحدة، باريس، ألبان للنشر، ٢٠٠٥م.

بعد طرح هذا السؤال يمكننا التسليم بأنّ الحق في الشك من الحقوق الأساسية على أقل تقدير، ولا يمكن للمعرفة الإنسانية أن تصحح نفسها دون تمتّع المرء بهذا الحق.

فمثلًا: إذا سحب هذا القانون من الوسط العلمي، فلا يمكن أن نتوقع حدوث أي تقدّم للمعرفة؛ لأنّ النظريات العلمية المهيمنة ستكون ثابتة، وغير قابلة للتغيير، وهذا من شأنه أن يوقف تقدّم الإنسانية، ناهيك عن الآثار الناجمة عن غياب هذا الحق في المجال السياسي. بيد أن ما لم يره هذا الشخص عند مطالبته بـ "الحق في الشك" هو اقتضاء الحقوق واجبات، ولكن لماذا تقتضي تلك الحقوق واجبات؟

لأن الشّكّ المفترض وجوده لذاته دون ضوابط وضغوطات، يمكن أن يتحوّل بسهولة إلى شكل من العدميّة العقليّة، ونفي لكلّ خطاب. فيمكننا إثبات أنّ شيئًا ما موجود، ولكن يستحيل نثبت إثباتًا قطعيًّا بأن شيئًا ما غير موجود. وهذا الحكم بالتحديد يطلقه كل مرتاب شديد الحذر من كل قول رسمي: أثبتوا لي أنه لا توجد مؤامرة، وأثبتوا لي أنّ هذا المنتج لا يمثل أي خطر، ويمكن أن أثبت وجود خيول، ولكن لا يمكنني إثبات عدم وجود وحيد القرن، وإذا تأكّد لدينا أننا لم نر قط هذا الحيوان، وأن وجود هذا المخلوق يتعارض مع المعرفة بعلم الحيوان، فإن كل من يشك في الحقيقة الرسميّة يمكن أن يعترض ويدَّعي أنّ العلم قد أخطأ -غالبًا- عبر تاريخه الطويل؛ إذ من الممكن أن نجد وحيد القرن في أماكن غير مستكشفة في قلب الغابات البعيدة، أو في كواكب أخرى، بل قد يستند إلى شهادات أشخاص يدّعون أنهم رأوه، أو يعرض آثارًا يفترض أنّ إحدى تلك المخلوقات خلّفتها...إلخ. وهذا تجسيد للسفسطة الموسومة بـ "حجّة الجهل".

وهذا ما سنراه، حيث إن شروط ديمقراطيتنا المعاصرة تساعد على انتشار هذا النوع من الحجج في الفضاء العمومي؛ فينتج عن ذلك: تمكين المطالب بحق الشك من دفن كل خطاب منافس تحت سيل من الحجج.

دعونا نفكر، انطلاقًا من أحداث ١١ من سبتمبر، نجد أن خرافة نظرية المؤامرة مدعومة بحوالي مئة حجة مختلفة، يعود بعضها إلى علم الفيزياء وما يتصل بالجانب الحركي للمواد، وبعضها الآخر إلى علم الزلازل، أو إلى تحليلات الأسواق المالية[٢].

(٢) ينظر: أنفوسي، ٢٠١٠م.

ويترتب على هذا الوضع الوقوع في متاهة عقليّة يصعب على من لم يكن له رأي محدد الخروج منها بسهولة، وسواء أانخرط في هاجس الشك أم لم ينخرط، فسينتابه شعور بعدم الارتياح. وفيما يخص مسائل عديدة ذات علاقة بالصحة العامة، والمخاطر البيئية، والموضوعات الاقتصادية، وفيما يتصل بممارسات السلطة السياسيّة، ونشر المعلومة عبر وسائل الإعلام التقليدية...إلخ، فثمة شك ينخر في عظم معاصرينا.

ويبدو أنّ الحق في الشك قد أصبح صائت الذيوع إلى درجة أنّ المطالبين به كنوع من الفزع الأخلاقي نسوا أيضًا مسألة استغلال الحقوق. كما أذكّر الذين يعدّون هذه الملاحظة قاتلة للحرية أنه لا شيء أكثر قتلًا للحرية من الحرية التي تمارس دون قيود أو ضوابط، ثم إنّ التأثير الذي يمكن أن ينتج عن هاجس الشك هذا يزعج إلى أبعد مدى كل فكر معقول، وإذا ما فكرنا قليلًا، نجد أنّ الثقة تمثل جوهر كلّ حياة اجتماعيّة سليمة.

وإذا أمكن لنا التعايش معًا؛ فذلك يعني أنّ لدينا انطباعًا بتميّز الحياة الجماعيّة بنوع من القدرة على التنبؤ. فعلى سبيل المثال لا الحصر: عندما يخرج سيّد ما إلى عمله، فإنّه يرجو ألّا يكون ضحية لص أو مجرم، وعندما يحصل على تذكرة سينما، فإنّه ينتظر من مشغلي العرض أن يعرضوا الفيلم المرتقب، وعندما يُنار الضوء الأخضر للإشارة، فإنّه يتوقّع المرور بثقة تامة؛ لافتراضه أنّ سائقي المركبات الأخرى في الشارع المتقاطع سيحترمون قانون الطرقات، وهو يرجو أيضًا بنوع من المنطق أنّ رسالته التي أرسلها ستبلغ صاحبها بفضل سلسلة من الأعمال التي يقوم بها موظفون لا يعرف عنهم شيئًا...إلخ.

ولكن معظم هذه التوقعات ضمنيّة (وإذا كان غير ذلك فإن ذهننا يغرق في الكم الهائل من المعلومات التي يتعين عليه تناولها)؛ لاستنادها إلى تجربة أفراد يعرفون عادة باعتمادهم على قدرة التنبؤ التي تميز النظام الاجتماعي، بحيث إنهم واثقون، وهذه الثقة هي اعتقاد راسخ؛ لاعتمادها على عدد مهم من التجارب، بيد أنها في الوقت نفسه هشّة؛ لكونها مجرد اعتقاد.

ومن أجل أن يضمن كل نظام اجتماعي وجوده وبقاءه يحتاج إلى مشاركة واسعة في ذلك الاعتقاد، ويكفي أنّ بعضهم يشرعون في الشك بأبناء وطنهم، فقد يتوقعون منهم عدم احترامهم الضوء الأحمر، حتى نرى بعض السائقين يخفّضون سرعة مركباتهم في كل مفترق طرق؛ فيعطّلون بذلك حركة السير.

ويبدو أنّ مستوى انعدام ثقة السكان في السلطة السياسية يكون مرتبطًا بالريبة والحذر من شخص ما، وهو ما يظهره التحقيق الدولي الكبير الذي قام به إنجلهارت (Ingelhart) وزملاؤه[٣]. ولنأخذ مثالًا واحدًا على البرازيل، هذا البلد الذي يعدّ من أكبر البلدان التي تنعدم فيه الثقة السياسية، ويكثر الشك بين أفراده؛ إذ إنّ ٨ , ٢٪ فقط من مجموع السكان يصرحون بثقتهم في الآخرين، ويمكن أن تكون نتائج الطعن في هذا الاعتقاد أسوأ ممّا نتصوّر، وهكذا في مناخ سياسي شديد التوتر، وإذا انتشرت إشاعة مفادها أنّ أعيرة نارية أطلقت في المدينة، فإن عددًا من الأفراد يمكن أن يقرروا البقاء في منازلهم تجنبًا لأعمال الشغب، ومخافة تعرّضهم لعنف حرب أهليّة مفاجئة، وهم يسهمون بذلك العمل في دعم فكرة أنّ أحداثًا خطيرة يمكن وقوعها، ويتدربون في سياق دائرة مفرغة تراكميّة.

وكان بالإمكان أن يقع هذا في الهند في ٢٠ من نوفمبر عام ١٩٨٤م عندما راجت شائعة في نيودلهي، تؤكد أنّ الرّئيس زايل سينغ (Zial Singh) قد اغتيل، وفي غضون ثماني ساعات فاصلة بين ذلك الوقت ونشرة أنباء الساعة الثامنة عاشت المدينة حالة من الهلع بسبب هذه الأخبار الزائفة، فالرأي العام الهندي الذي كان تحت صدمة الاغتيال الأخير لأنديرا غاندي (Indira Gandi) (يوم ٣١ من أكتوبر عام ١٩٨٤م)، كان يشعر بأن المجتمع الهندي مازال هشًّا، وغير مستقرّ، ومن ثمّ يمكن لاغتيال سياسي ثان أن تكون له تأثيرات اجتماعيّة مأساويّة؛ وتفاديًا لذلك الأمر غادر الموظفون العاملون في البنوك وبعض الأساتذة أماكن عملهم قبل انتهاء الدوام الرّسمي، وفي الوقت نفسه أغلق التجار أبواب محالّهم التجارية، وتعرّضت موزّعات الهواتف التابعة لوكالات الأنباء لضغط شديد.

وأصبح النظام الاجتماعي مهدّدًا في تماسكه؛ لأنّ كل واحد يلحظ اختلال توقعاته اليوميّة، وذلك في ظلّ جهله ما سيقوم به الآخر تجاه الحدث نفسه، وقد انقشعت هذه الإشاعة بمجرد إظهار نشرة الأنباء المسائية صورًا للرئيس وهو في صحّة جيّدة، يستقبل بعض الضيوف، ويقوم بأعماله اليومية، ولم يكن مقدّم النشرة جاهلًا بانتشار خبر الإشاعة؛ إذ أكّد في تعليقه أنّ الرئيس في صحّة جيّدة.

ونتساءل ماذا وقع بالضبط؟ وكيف انتشرت هذه الإشاعة على هذا النحو؟ لقد وقعت بالفعل عملية اغتيال في القصر الرئاسي، لكن ضحيّتها كان بستانيًّا يعمل في إحدى حدائقه! وفي الإطار الاجتماعي-السياسي للهند، كان التأويل الطبيعي لهذه الوقعة كالآتي: إذا وقعت عملية اغتيال في

(٣) إنجلهارت، ٢٠٠٣م.

القصر؛ فلا يمكن أن يكون ضحيّتها إلّا الرئيس عينه. وخرجت المدينة من هذه المحنة من دون وقوع أضرار في ذلك اليوم، وكان بالإمكان أن يتم الأمر على نحو مختلف.

إنّ الثقة ضرورية لكلّ حياة اجتماعيّة على وجه العموم، وللمجتمعات الديمقراطية التي تنتظم حول تقدّم المعرفة وتقسيم العمل الفكري على وجه الخصوص. والواقع يظهر أنّه كلّما ازداد إنتاج هذه المعرفة كان نصيب كلّ فرد منها أقل، أي: كلما عرفنا أشياء أكثر يكون نصيب ما يعرفه المرء أقل بصفة مهمة نسبيًّا. ولا أحد ينكر أنّ الفرد منذ عدّة قرون مضت كان أمله الإلمام بكلّ المعارف العلميّة، لكن ذلك أصبح غير ممكن اليوم، وهذا يعني أنّ المجتمع يتأسس على تقدم المعرفة، وهذه مفارقة لدى مجتمع الاعتقاد بالوكالة، ومن ثمّ مجتمع الثقة، وهذا ما فهمه توكفيل (Tocqueville) في زمانه بقوله: "لا يوجد فيلسوف كبير في العالم يصدق ملايين الأشياء بناءً على نوايا الآخرين، ولا يمكنه افتراض حقائق لا يمكنه إثباتها، هذا ليس أمرًا ضروريًّا فقط، بل مرغوب فيه أيضًا"[٤]. وما من شك في هذه الرغبة؛ لأنه لا يمكن الاستمرار على تخيّل عَالم يكون فيه كل واحد مدققًا بطريقة محمومة في كل معلومة، غير أنه توجد ظروف اجتماعيّة تتطلب تغيير مسار الثقة هذا.

وليست الديمقراطيات الغربية سببًا في الوضع السياسي المتوتر الذي عاشته الهند في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، والوضع لا يبدو على شفا حرب أهليّة، ولكنّنا نتلمّس في كل الميادين وجود مناهضة للسلطة ولخطابها الرسمي، بل التشكيك في نتائج الخبراء. فمثلًا: نتائج الاستطلاع المختلفة حول انعدام الثقة تعدّ في أحسن الأحوال غامضة، وفي أسوئها مثيرة للقلق. ويعطينا بحث أُنجز في سنة ٢٠١١م حول علاقة الفرنسيين بالعلم[٥] نتائج متناقضة، وبعضها يكشف عن هذا الشك الذي ينخر المجتمع الفرنسي حول المسائل المهمّة.

وحول السؤال القائل: هل ينتج العلم والتكنولوجيا أضرارًا أكثر من تحقيق الفوائد؟ أجاب ٤٣٪ منهم بـ "نعم". وربما يسعدنا أنّ ٥٦٪ منهم أجابوا بـ "لا"، في حين أن (١ ٪ لا يعرفون). كما نلحظ النسب نفسها حول السؤال الآتي: هل يمكن للأجيال المقبلة أن تعيش أفضل مما هو عليه الحال

(٤) توكفيل، ١٩٩٢م، ص٥١٩.

(٥) تحقيق شركة إيسوس لاستطلاع الرأي، البحث والعلم الموجود على الرابط الآتي:
http://www.larecherche.fr/content/system/media/Rapport.pdf

اليوم بفضل العلم والتكنولوجيا؟ لكن قبل لإجابة عن هذا السؤال، يمكننا أن نفهم أيضًا أنّ هذا يعبِّر عن جحود لا يصدّق، ألا يدرك الذين أجابوا بنعم عن هذا السؤال أنّ الأمل في الحياة منذ الولادة كان ٣٠ سنة عام ١٨٠٠م، وقارب بتواضع ٦٠ سنة في حدود عام ١٩٦٠م، في حين يتجاوز اليوم ٨٠ سنة[٦]! فهل يعرفون جيّدًا أنّ متوسط درجة الحرارة في شقة لندنية في القرن التاسع عشر كان حوالي ١٢ درجة مئوية؟ وهل يتذكرون وجود أوبئة، مثل: الطاعون والكوليرا أو التيفويد التي قضت على ملايين البشر؟ وهلّا يقدّرون يوميًّا فوائد الكهرباء والإلكترونيات أو المعلوماتية؟

وهذا الارتياب إزاء العلوم متزايد منذ ثلاثين سنة[٧]، ويصبح أكثر يقينًا عندما نتناول موضوعات حظيت بتغطية إعلامية مكثفة، تعطي انطباعًا لمواطنينا بأنهم يعرفونها:

فمثلًا: ٥٨٪ يصرحون بعدم إعطاء الثقة للعلماء في قولهم الحقيقة حول الكائنات المعدّلة وراثيًّا (OGM)، أو حول المسائل النوويّة (٣٣ إلى ٣٥٪ فقط يثقون). وأمّا ٧٢٪ منهم فيرون أنّ التقويمات التي أجريت حول أمن المحطات النوويّة لا يمكن الوثوق بها. أعرف أنّ الكثيرين من قراء هذه السطور سيجدون أنّ هذه المواقف معقولة، ولا يرون أنّ هذا الشك -كما عُبّر عنه- مفرط فيه، ولو لم يكن الحال هكذا، لكان هذا الكتاب بلا هدف.

تمثل الكائنات المعدّلة وراثيًّا المثال المناسب لاستيلاء الزيف على الرأي العام، وسأعود إلى ذلك لاحقًا. وعمومًا اهتزت صورة التكنولوجيات الحيوية في كامل أوروبا في منتصف التسعينيات من القرن الماضي[٨].

وهذه الريبة لا تشمل العلم وحده، فالصحفيون الذين من المفترض أن يأخذ المواطنون منهم المعلومات لم يكونوا بمنأى عن ذلك[٩]. وهذا هو الواقع، حيث يعتقد ٦٣٪ من الفرنسيين المستطلعين أنّ الصحفيين ليسوا مستقلين أمام ضغط الأحزاب السياسية والسلطة المهيمنة والمال بنسبة بلغت

(٦) انظر الموقع: http://www.ined.fr/fr/tout_savoir_population/graphiques_mois/esperance_vie_france

(٧) انظر الموقع : http://www2.cnrs.fr/presse/journal/1715.htm

(٨) بوي، ٢٠٠٣م.

(٩) بحث تايلور نيلسون – سوفريس لفائدة صحيفة لاكروا الفرنسية الموجود على الرابط الآتي:
http://www.tns-sofres.com/_assets/files/2011.02.08-baromedia.pdf

٥٨٪. أمّا الصحافة المرئية التي مازالت تمثل المصدر الرئيس للمعلومات في فرنسا، فقد خسرت حوالي ٢٠ نقطة من الثقة منذ عام ١٩٨٩م؛ إذ يعتقد اليوم ٥٤٪ من الفرنسيين أنّ الأشياء لا تتم (لا بالفعل ولا بالتقريب) كما يقال في التّلفاز.

وفيما يخص السياسيين[١٠]، فإنهم لا يحظون إلا بثقة ٤٢٪ من المواطنين، وإن كان رؤساء البلديات في وضع أفضل من الآخرين بحصولهم على ٥٤٪، في حين أنّ النواب لم يحصلوا إلا على ٣٠٪. كذلك لا يمنح الفرنسيون أي ثقة لرجال السياسة لتسيير البلد، سواء أمن اليمين كانوا أم من اليسار بنسبة أكثر من واحد من اثنين. وفي المقابل يرى ٣٠٪ فقط أنّ معظم رجال السياسة الفرنسيين نزهاء.

عندما يسعى هذا التحقيق إلى دراسة الحالة الذهنية لمواطنينا، فإن النتائج غير مشجّعة؛ إذ نلحظ ارتفاع الضجر والكآبة والخوف مقابل تراجع الهدوء والحماس ورغد العيش (مقارنة بالتحقيق السابق المنجز سنة ٢٠١٠م). أمّا الصّفة التي يزداد انتشارها نسبيًّا فهي الريبة التي بدأت بأكثر من ٦٪، لتصل إلى ٣٤٪ من المستجوبين. وعمومًا يرى ٧٠٪ من المستطلعين أننا لسنا دائمًا حذرين بما فيه الكفاية عند تعاملنا مع الآخرين، وأنّ ٣٨٪ منهم يعتقدون أنّ معظم الناس يتطلعون إلى الاستفادة منك.

كما نلحظ أيضًا أنّ ثقة الأفراد في مؤسساتهم السياسية قد تهاوت في كل مكان تقريبًا [١١]، ويمكن أن نجد مثل هذه النتائج لدى معظم الدول الغربية، ولكن علينا الاعتراف بأن فرنسا تمثل أرضية مثاليّة للدراسة، ومنذ فترة تمثل ظاهرة القلق الوجودي اضطرابًا وطنيًا في بلدنا.

وأثبتت الدراسة الأخيرة (٢٠١٢م) لشبكة جالوب الدوليّة التي مسحت ٥١ دولة لتقويم "الروح المعنويّة" للسكان بمختلف شرائحهم، أنّ فرنسا تحتل المرتبة الأولى عالميًّا في الكآبة. ومن دواعي القلق أنّ الدراسة تبرز أنّ الفرنسيين لم يكونوا فقط أكثر تشاؤمًا، بل وصلوا إلى مستوى من القلق لم يبلغوه قط منذ بداية اللجوء إلى مثل هذه التحقيقات، وذلك على الرغم من أنّ ذلك كان في عام ١٩٧٨م، إثر الصدمة البترولية الثانية، عندما كانت الأنظمة الاقتصادية برمتها في وضع سيّئ. ومن المفارقات أنّ هذه الأزمة قد طالت كل الدول الغنية. وما يدعو للحيرة في هذا التحقيق بيانه أنّ

(١٠) استطلاع سوفيبوف، ٢٠١١م، الموجود على الرابط الآتي:

http://www.cevipof.com/fr/le-barometre-de-la-confiance-politique-ducevipof/resultats3/

(١١) خلاصة حول هذه المسألة: ينظر: دوقان (إشراف) ٢٠٠٥م.

الفرنسيين أقل تفاؤلًا مقارنة بغيرهم من الشعوب، مثل: نيجيريا أو العراق، وهما بلدان مهدّدان بالمجاعة والحرب الأهلية. وبغض الطرف عن التفسيرات التي توضّح هذه النتائج المثيرة – وهنا أيضًا قراءة توكفيل أثبتت جدواها – فإنّ ما يزعج هو التعبير الأكثر انتشارًا عمّا يشبه وجهة نظر طفل مدلّل.

ويبدو أنّ الذي يعيش في الديمقراطيات المستقرة حيث ضمان الحرية والأمن يبحث عن الطريقة التي تجعل منه ضحية شيء ما، وقد أثبت غيوم إرنر (Guillaume Erner)[١٢] أنّ وضع تلك الضحية أصبح مرغوبًا في الفضاء الديمقراطي. ويسمح هذا الشك بأن نسند للكل وضعية الضحايا، حيث يتآمر الأقوياء ضد الحقيقة في أغلب الأحيان؛ لأنّ بإمكان هذه الريبة –وإن كانت مجرد الشعور بالغموض– الانتظام أيضًا في شكل خطاب مندّد. هذه هي حالة مختلف نظريات المؤامرة التي تعود بقوّة إلى الفضاء العمومي في السنوات الأخيرة[١٣]. فبم يتعلق الأمر؟ يتعلق الأمر بعالم مصاب بجنون العظمة يمكن تحديده بعبارات، مثل: "كلّ الأشياء مترابطة"، و "لا شيء يأتي بالصدفة"، و"الأمور ليست كما تبدو"، فمن أكثر الموضوعات غرابة إلى أكثرها إثارة للقلق: قضية دومينيك ستراوس–كان (Dominique Strauss –Kahn)، نادي القرن بباريس، المتنورون، وهجمات ١١ من سبتمبر، وزلزال هايتي، والرجال–السحالي hommes-lézards الذين عوّضوا حكّامنا، وفيضانات...إلخ. ومن هنا يضع الخيال التآمري إخراجًا مسرحيًّا للفكرة القائلة: إنّ بعض القوى تمنعنا من معرفة العالم كما هو عليه، وعلى هذا الأساس تخفى عنّا الأشياء.

ويمكننا بعبارة أخرى وصف تلك الريبة التي تتسرب في كل مكان وتنتشر، فمثلًا: تشبه الأساطير التي تحاك حول المؤامرات ثعابين البحر في الخيال الإنساني؛ لقدرة خدماتها الكبيرة على إرواء تعطشنا لفهم العالم، ونلحظ ارتكاز هذه الأساطير على محور الاستكشاف الذي يرضي الفكر، وهو قريب للشعور الذي ينتابنا عند توصّلنا إلى حل لغز ما: كتعلق الأمر مثلًا بإعطاء نوع من الانسجام بين أحداث لم تكن كذلك في حينها، وبإيجاد علاقة بين أحداث تبدو في ظاهرها مستقلة، وذلك بإبراز ترابطها ترابطًا غير ظاهر بإرادة مجموعة معينة أو فرد ما. وعادة ما تكون هذه الأساطير مذهلة،

(١٢) إرنر، ٢٠٠٦م.

(١٣) ينظر: كامبيون– فانسان (٢٠٠٥م)، وتاقياف (٢٠٠٥م)، أو شاربيي (٢٠٠٥م): وصدور هذه الدراسات في الفترة نفسها دليل على عودة هذه القضايا من جديد.

وتسترعي الانتباه سريعًا، ومن ثم تخزّن في الذاكرة بكل سهولة ويسر، وهو ما يمثل مكسبًا كبيرًا لها، ومن ثمّ التمهيد لعملية نشرها في السوق المعرفية. ومن جهة أخرى يشعر المتبنّي أسطورة المؤامرة بأنّ لديه معرفة أكثر من غيره، وأنّه أقل سذاجة منه، ومن هنا لم يكن دائمًا من السهل إقناعه ببطلان حججه؛ لأنه سرعان ما يرى مخاطبه وسيطًا لتوجّه رسمي، يتعين عليه مقاومته. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أنّ أساطير المؤامرة عادة ما تُرضي القوالب النمطية أو كل أشكال الثقافات الفرعية، فإننا نفهم بسهولة أننا لسنا بحاجة إلى أن نكون غير عقلانيين؛ لكي نعدّها جذّابة.

وتتعدّد الأمثلة حول أساطير المؤامرة عبر التاريخ، فمن ذلك: بروتوكول حكماء صهيون، والفكرة القائلة: إنّ الثورة الفرنسية قام بها الماسونيون...إلخ. ويمكن أيضًا من هذا الباب عدّ تنظيم محاكمة فرسان الهيكل ضمن زاوية المؤامرة. وهناك أحداث خيالية أو حقيقية كثيرة لا تجد لها تفسيرًا بديهيًّا؛ فتصبح مولِّدة لأسطورة المؤامرة، وهذا لا يستثني القرن العشرين؛ إذ وصمت مجموعات كاليهود والماسونيين والغجر وآخرين بالتداول أو في الوقت نفسه بأنّها مسؤولة عن مختلف أشكال الجراح الموجودة في المجتمع: كالبطالة، والكوليرا، والتضخم المالي، والمكائد السياسية، والتلاعب بالرأي العام...إلخ. إذن لم تولد أساطير المؤامرة في القرن الحادي والعشرين، حتى وإن حظيت بنسبة مؤيدين غير مسبوقين، ولنأخذ مثالًا واحدًا يضم نوعًا من التساؤل: أليس من الغريب، أنّ إجراء استطلاع تلو الآخر يؤكد نجاح الأساطير المؤامراتيّة للحادي عشر من سبتمبر؟ ولا نعجب إذا رأينا أنّ لهذه الأسطورة صدى أكبر في البلدان العربيّة التي لا تتصف بحبّ الأمريكيّين والإسرائيليّين (فتقريبًا أردني من كل اثنين و٥٥٪ من المصريين يعتقدون أنّ هذه الاعتداءات هي من صنع الولايات المتحدة أو إسرائيل)، ولكن من المذهل أن نسجّل شعبيّة هذا النوع من الاعتقاد لدى عدد من الدول الغربيّة، مثل: ألمانيا؛ إذ إنّ نسبة مؤيدي نظرية المؤامرة تبلغ ٢٦٪، وتبدو فرنسا أكثر اعتدالًا، حيث إن ١٥٪ فقط من المستجوبين يعتقدون أنّ الولايات المتحدة أو إسرائيل متورطتان في هذه الأحداث، ولكن ٢٣٪ منهم يدّعون أنهم لا يعرفون، ويظهرون الشك في الرواية الرسمية[١٤]. ولا شك في أن أكثر النتائج إثارة للاهتمام هي التي سجّلت في الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها؛ إذ أظهر تحقيق[١٥] أنّ ٣٦٪ من الأمريكيّين يصرحون بإمكانية، أو من المحتمل جدا تورط ضباط فيدراليّين في هذه الاعتداءات.

(١٤) النتائج المعروضة مأخوذة من بحث منجز في ١٧ دولة، سنة ٢٠٠٨م من طرف WorldPublicOpinion.org.

(١٥) انظر الموقع: http://www.scrippsnews.com/911poll

ولحظت الباحثة فيرونيك كامبيون-فانسان (Véronique Campion-Vincent) (٢٠٠٥م)، أنّ خيال المؤامرة محصور في الفكر الرجعي، ولكنه اليوم ينتشر في أوساط كل الشرائح المجتمعية، بل تجاوز الموضوع السياسي إلى موضوعات أخرى. كما تفسر الباحثة نفسها المظهر الثاني للفكر المؤامراتي الحالي، فترى أنّه تخيل وجود "مؤامرات عظمى"، أي: مؤامرات ذات طموح كوني، وهذا يعني أنّ الموضوعات الخياليّة قد تعولمت شأنها شأن غيرها، وبعض هذه الأساطير المبثوثة في سياق تلك الموضوعات يثير السخرية. وهكذا عندما يتخيل دافيد إيك (David Icke)، المهووس بالسحالي، أنّ كبار السياسيين ليسوا سوى زواحف مستذئبة ضارية تنحدر من عرقٍ قديم من السومر-الفضائيين، أو عندما دافع بعضهم عن الفكرة القائلة: إنّ آثار غاز كيمتريل التي تتركها الطائرات وراءها في السماء هي مواد كيمياوية تنثرها الحكومات؛ لكي تتلاعب بالأحوال الجوية أو بالعقول. ونرى لدى بعض الحالات أنّ هذه الأوهام تصاحب أحداثًا ذات نهايات دموية، مثل: مآسي حصار واكو Waco في ولاية تكساس الأمريكية، أو الاعتداء القاتل في أوكلاهوما سيتي Oklahoma City.

وهناك سبب آخر لتقدير النجاح الحالي المقلق لأساطير المؤامرة المعاصرة، وهي تبدو في ظاهرها مشتركة في الإدانة الجماعية مهما اختلفت أشكالها، وهذا ما جعل أصناف الجزع الجماعي تتغيّر في العقود الأخيرة. ومن أبرز المشاهد التي لها رمزيّتها مشهد: اغتيال جون فيتزجرالد كينيدي (John Fitzgerald Kennedy)، إذ يقبل اليوم ٧٥٪ من الأمريكيين أطروحة المؤامرة، ويتساءلون: من المسؤول عن هذا الاغتيال؟ فتأتي الأجوبة مختلفة من شخص لآخر، فبعضهم يرى أنّ مصدر الاغتيال جاء من: كلو كلاكس كلاين (Klu Klux Klan)، أو القادمين من الفضاء أو المافيا، بيد أنّ الطرف الذي تحوم حوله الشكوك دائمًا على نحو ملحٍّ هي وكالة الاستخبارات الأمريكية، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ إقحام تلك الوكالة الحكوميّة ليس بريئًا؛ فقد أضحت تمثل باستمرار صورة المذنب المثالي لكلّ المؤامرات؛ لتمثيلها الوجه السام للسلطة الأمريكية. وينبثق عن الخيال المعاصر القائم على المؤامرة كيانان خبيثان وتآمريان: العلم، والحكومات الغربية بنظمها الاستخباراتية، ويبدوان غالبًا متحالفين مع وسائل الإعلام المتواطئة. وأمّا في السابق فقد كان يقع لقب المذنبين المثاليين في المقام الأول على المنحرفين أو الأقليات، أي: ما سمّي بـــ "الآخرين". وقد كان لذلك التصنيف نتائج وخيمة كما أثبت التاريخ ذلك. أمّا اليوم فإن استيهامات الخوف تقترح علينا فاعلين جدد على مسرح الضغينة، يمكن أن يكونوا وجوهًا أخرى من أنفسنا، وهو ما يبرز نوعًا من الحقد على الذات، والعلم شأنه شأن

قادتنا أو وسائل الإعلام، أي: يعتريه ما يعتري غيره، وجميع هذه المحاور والمجالات تمثل وجوهًا رمزية للمعاصرة الغربية.

وبناء على ذلك يصبح الغربي هو المذنب المثالي الذي يريد إخضاع الشعوب الأخرى والطبيعة لنزواته المتناقضة وغير الأخلاقية. وفيما يخص نظريات المؤامرة تمثل الصدفة ضيفًا مرغوبًا عنه؛ فهي تكشف عن تناسق العناصر المتباينة بالاستناد إلى التاريخ الإنساني، وذلك بفضح المسؤولين عن مآسي العالم، ونفي تعقّد الواقع لصالح البحث عن السبب الوحيد وراء ذلك، ويمكننا أن نقلق إزاء رؤية الفكر المعاصر أنّ الشك المعمَّم علامة ذكاء أكثر من كونه نقصًا في الفطنة.

إنه أمر مضحك عندما يتعلق الأمر بمعرفة مدى إرسال باراك أوباما (Barak Obama) إلى المريخ في سن التاسعة عشرة بوساطة وكالة سرية أمريكية بغرض استعمار الكوكب الأحمر، أو عدم تحقق ذلك، كما يؤكد ذلك أندريو باسياقو (Basiago Andrew D.)، ووليام ستيلنقس (William Stillings)، اللذان نصبا أنفسهما "عرّافَيْن". ويمكننا التساؤل: هل كان من الضروري نشر كذبة كهذه بطريقة ساخرة، كما قام بذلك البيت الأبيض في يناير عام ٢٠١٢م؟ وما يدعو إلى القلق أكثر عندما يتعلق هذا الارتياب بالاختبارات الطبية، وينجم عن ذلك مثلًا تأخر التغطية في مستوى اللقاحات لأمراض، مثل: التهاب الكبد صنف "ب" أو الحصبة، ومن ثم يؤدي ذلك إلى موت أشخاص يجهلون أنهم ضحايا هذا الشك المعمّم.

وتعدّ حالة لقاح الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية ROR أنموذجيّة ومحزنة في الوقت نفسه، ففي تسعينيات القرن الماضي، تساهلت المجلة الطبية "ذي لانست" في إنجلترا بنشر دراسة تدّعي وجود علاقة بين هذا اللقاح وبعض الأمراض التي منها التوحّد[١٦].

ولكن تبين بعد ذلك أنّ هذا المقال الذي اعتمد على ١٢ حالة فقط مضلل، ودحضت نتائجه عدة مرات بدراسات مكلفة، واستدركت المجلة وعدد من كاتبي المقال هذا الخطأ، بل صرح رئيس تحريرها للقاردين Guardian بقوله: "يبدو واضحًا دون أدنى التباس، أنّ التصريحات المضمّنة في هذه الدراسة خطأ تمامًا؛ أشعر أني خدعت".

(١٦) حول هذه القضية، انظر: كريفين، ٢٠١٠م.

وقد أدى كل ذلك إلى إدانة المجلس الطبي البريطاني، ويمكن أن تكون هذه الحكاية من باب النوادر لولا تسبّبها في انخفاض التغطية اللقاحيّة انخفاضًا كبيرًا، وتزايد حالات الحصبة في بلدان كثيرة، بل بقيت الشائعات قائمة بعد مرور عدة سنوات من انتشارها، كما ظلّ كثير من الآباء محترزين من تعريض أبنائهم لما يسمونه "خطرًا لقاحيًّا". ويمكننا أن نستخلص الملاحظة نفسها بخصوص اللقاح ضدّ التهاب الكبد الوبائي صنف "ب" الذي مازالت الإشاعة منتشرة حوله بمساعدته على ظهور التصلب المتعدد. ويقوم السكان بنوع من الاحترازات التي لا تحظى بموافقة جموع الأطباء. ويمكننا الانتظار لنرى مرضى كثيرين من بين الأجيال القادمة يعدّون أنفسهم ضحايا القدر، جاهلين أنهم ضحايا الشكّ غير المنطقي المستمدّ من أولياء أمورهم.

وهذا الشك بصفتيه الصريح أو الضمني كان دائم الحضور، وقد صاحب الديمقراطية منذ نشأتها[١٧]. ومن خاصيات السلطات أنها توحي بمثل هذا الشعور، وذلك بغض الطرف عن كونها اقتصادية أو سياسية أو رمزية، وكل ما في الأمر أنّ هذه الريبة تجددت في موضوعاتها، وأغراضها، وخاصة بعد انتشارها بعيدة عن فضاءات التطرف التي كانت منذ أمد قصير الفضاءات الوحيدة التي تحتضنها.

إنه من الصعب إدراك ظاهرة واسعة النطاق كالظاهرة المذكورة إذا تذرعنا بالحمق أو انعدام الاستقامة، كما يحدث لنا في كثير من الأحيان عند مواجهتنا معتقدات محيّرة.

سأقوم بالرهان المعاكس، وسأنطلق من الافتراض القائل: إنّ هذا الشك لم يزدد انتشارًا إلا بسبب كون الناس على خلاف ما قيل؛ وامتلاكهم مبررات لاعتقاد ما يعتقدونه[١٨]، ولأن هذا الشك المعاصر الذي يزداد انتشارًا طوّر براهين فعالة تبدو في ظاهرها مقنعة. وامتلاك أسباب الاعتقاد لا يعني أنّ لدينا حق الاعتقاد، لكن هناك عوامل تدفعنا إلى التأييد منها: تلبية رغباتنا وعواطفنا، وتناسق الأفكار، وقوة البرهنة والتطابق مع ما يراد التسليم به من حيث كونها وقائع ومقترحات مضللة، تدعي إنارة العالم، في حين أنّ ما تكشفه هذه الوقائع والمقترحات المضللة هو الوجه المظلم لعقلانيتنا.

---

(١٧) مثلما لاحظ ذلك روزانفالون، ٢٠٠٦م.

(١٨) استلهم هنا موقف ريمون بودون حول هذه النقطة ذاتها (١٩٩٥و٢٠١٢م). ويمكن القول: إنها مستوحاة أيضًا من أفكار عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر.

سنرى في هذا السياق أنّ الشروط الجديدة لسوق الإعلام هي التي تعزز التعبير عن هذا الجانب الغامض من عقلانيتنا، والغزو المريب والمزيف لفضائنا العمومي. ولا أحد مسؤول بصفة استثنائية عن هذه الوضعية: لا الصحفيين، ولا العلماء، ولا السياسيين، ولا مستعملي الإنترنت، ولا حتى المتآمرين! إنها مسؤولية مشتركة. ولتوضيح هذه الوضعية، سأحاول إبراز تأتّيها من مسار مزدوج للـ "دمقرطة" هما: تحرير سوق الإعلام (تنافس وسائل الإعلام، مهما كان نوعها)، وثورة عرض "النتاج" في هذا السوق. ويعكس هذا المسار المزدوج قيمتين أساسيتين لمجتمعاتنا هما: الحرية والمساواة، ومن ثمّ يصبح من غير المريح لي بكوني ديمقراطيًّا أن أتصوّره سيّئًا بطبعه. وفي المقابل، لا يستحيل على أحد إثبات أنّ ذلك يترك آثارًا سيئة ورهيبة، ولا أخشى أن أؤكد أنّه يرسم حدود لحظة تاريخية مزعجة جدًّا لديموقراطياتنا؛ وذلك لمضاعفته إمكانات الانزلاق في منحدر رهيب، قد تؤدي إلى تعميم التحليل الخاطئ بأشكاله المختلفة بعد أن كانت تتسم بالخصوصية.

هذا الوجه المظلم للعقلانية هو بصدد الاستحواذ على الفكر الديمقراطي، لكن لم يفت الأوان بعد. لقد حرّرت هذا الكتاب حبًّا في الديمقراطية، وكنت أرغب بعد تشخيصي الوضع، الذي من الممكن أن يكون مخيفًا، في اقتراح بعض الحلول – ليست كلها جذرية – للمشكلة القائمة.

المؤلف

المحتويات

إهداء ..... هـ

تقديم ..... ز

مقدمة المترجم ..... ط

نبذة عن المترجم ..... س

توطئة ..... ف

مقدمة المؤلف ..... ق

قائمة الاختصارات ..... هـ هـ

الفصل الأول: عندما تكون الأكثرية أقلية: تعميم الإعلام والشح العقلي ١

الثورة في سوق المعرفة ١

تضخيم الانحياز التأكيدي ٧

قضية سياتل ١٠

تجربة واسون ١١

حول شُحِّنا الفكري ١٤

نظرية السذاجة الفكرية ١٦

"أتحقق من الخبر بفضل الإنترنت، كي أكون متأكدًا منه" ١٧

فقاعات الترشيح ١٩

الفصل الثاني: لماذا تتحالف الإنترنت مع الأفكار المريبة ؟ ٢٣

يوتوبيا مجتمع المعرفة وإمبراطورية المعتقدات ٢٣

مشكلة انعدام الحل ٢٥

وضعيّة المنافسة بين الاعتقاد والمعرفة عبر الإنترنت ٢٧
التحريك الذهني ٣٢
وحش لوخ نيس ٣٢
الأسبارتام ٣٣
دوائر المحاصيل ٣٣
علم التنجيم ٣٤
كيف نفسر هذه النتائج؟ ٣٥
أعراض التيتانيك ٣٧
عندما تقف مفارقة أولسون ضدّ المعرفة ٤١
تشارلز فورت، حياته، وأعماله ٤٣
نتاج فورت: الألف ورقة التدليليّة ٤٥
تبادل حجج الاعتقاد ٤٧
نتاج فورت في طور الإنشاء: الموت المزيف لـــمايكل جاكسون ٤٩
عندما يعزّز فورت أولسون ٥١
ومن قبيل الصدفة... ..... ٥٣
كل شيء موجود في الكتاب المقدس، حقًّا كل شيء ٥٧
مفارقة الشفافية ٦٠
فترة محدودة للحضانة ٦٥
الفصل الثالث: المنافسة تخدم الحقيقة، وكثيرها لا يخدمها ٧١
ابن مايكل جاكسون اغتصبه نيكولا ساركوزي ٧١
وضعية مأزق السجين ٧٤
الخيانات الرئاسية وحرق القرآن ٧٧
قضية الشواطئ المشعّة ٨٢
"موجة الانتحار" في شركة الاتصالات الفرنسية ٨٥

جدل إحصائي سرعان ما طواه النسيان ٨٨
عيوب نظرية الإدارة القاتلة ٩٠
أثر فيرتير والمخاطر الإعلامية ٩٤
الدعائم المعرفيّة للفورة الإعلامية ٩٧
الدعائم الأيديولوجية للفورة الإعلامية ١٠٠
في مملكة العميان، ضعاف البصر ملوك ١٠١
أثر الصدفة و"لوكيميا الاشعاع النووي" ١٠٣
منحنى مصداقية الخبر والمنافسة ١٠٥
الفصل الرابع: أصل الشر: الخطر الديمقراطي ١١١
الوأد في المهد ١١١
أفدح خطأ ارتكبه توني بلير ١١٣
أثر عُطيل ١١٤
الثلاثية الديمقراطية ١١٨
"صوت الشعب هو صوت إبليس؟" ١٢٠
شعور غريب في سانت كلو ١٢٨
الكل ضدّ الأفضل ١٢٩
الجماهير تكون أحيانًا ذكية... ..... ١٣١
...لكن ليس على الدوام ١٣٥
نظرية كوندورسيه ١٣٩
في جوهر عقولنا ١٤١
ما تكشفه سباقات الخيل ١٤٣
ميزان غير عادل ١٤٦
أبطال كُثْرٌ لبطولة واحدة ١٤٨
عودة إلى نظرية كوندورسيه ١٥١

أثر إيسوب ١٥٣
لا يكون مجتمعي على ضلالَةٍ أَبَدًا ١٥٧
الغوغائية المعرفية والشعبوية ١٥٩
الفصل الخامس: ما العمل؟ من ديمقراطية السذج إلى ديمقراطية المعرفة ١٦٥
آمال عالم الفيزياء الفلكية ١٦٥
التعليم السيّئ ١٦٨
عندما تُشبه السذاجة الذكاء ١٧٢
حصيلة العيوب ١٧٩
من أجل دحر عالِمِ الوهم فينا ١٨٤
إعلان الاستقلال العقلي ١٨٧
السلطة الرابعة ١٩٢
شكل جديد للتواصل العلمي ١٩٥
خاتمة ١٩٩
المراجع ٢٠١
مسرد المصطلحات ٢٠٩
ثبت المصطلحات ٢١٣
أولاً: عربي- فرنسي ٢١٣
ثانياً: فرنسي – عربي ٢٢١
كشاف الموضوعات ٢٢٩